

الذاكرة والذاكرة المضادة في المدينة الأدبية:

حيفا الانتدابية في اللغتين، العبرية والعربية

حن بار-يتسحاق

لطالما استُخدمت المدينة في الأدب بوصفها حيِّزًا من المجاز المُرسَل (synecdoche) - أعني أنّ الحَيِّز الضيِّق المحدّد للمدينة (الجزء) يُمثِّل فعليًّا الإطار الحَيِّزي الأوسع حيث تتموضع المدينة (الكلّ) - إن كان ذلك إطار الدولة أو الشعب أو المجتمع. وفي السياق الإسرائيلي، أوضحت باحثة الأدب نوريت جوبرين أنّ أدب المكان الإسرائيلي، ومن ضمنها أدب المدينة، ارتبط منذ خطواته الأولى بعلاقات وطيدة مع النزعات القومية، أي روح الجماعة الصهيونية (Zionist Ethos).¹ وفعلاً، فإنّ أغلب هذا النوع الأدبي المنشور يمثِّل الروايات الصهيونية المهيمنة. ولكن، نشهد إلى جانب ذلك حالات أخرى حيث تُستخدم المدينة أدبيًّا بوصفها منصّة للتعبير عن أصوات مغايرة، هامشية، والتعبير عن روايات مضادة للرواية المهيمنة. تشكّل هذه الحالات، الأصوات المغايرة، صلب المقالة الحالية. سوف أقوم بالتركيز على حالة دراسية واحدة، ألا وهي مدينة حيفا الانتدابية، وهي مدينة مميّزة في الثقافة المحليّة كما ساد تمثيلها في الأدب. وسوف أتناول عمليْن اثنتين تحديداً يقعان ضمن هذه الحالة الدراسية، الأولى نُشر بالعبرية والثاني بالعربية: النص المسرحي "سكّة حديد دمشق" للأديب المسرحي هيلل ميتلبونكت، ورواية "إخطيّة" للأديب إميل حبيبي. يقوم هذان العملان بتشكيل حيفا الانتدابية عبر منظور الحنين للماضي بوصفها، كما بات يصطّح عليه، موضعاً للذاكرة المضادة: وهو موضع ثقافي رمزي يقوم بتحديّ الروايات المهيمنة في إسرائيل حاليًّا حول حقبة الانتداب، تلك الروايات التي تعتمد على مفاهيم سائدة حول الشعب والمكان.

مواضع الذاكرة والذاكرة المضادة

قبل أن أبدأ بتحليل هذين العملين، يتعيّن عليّ بدايةً توضيح المقصود بتعبير "موضع الذاكرة المضادة"، وكيف يمكن لمدينة، كما يتم تمثيلها في الأعمال الأدبية، أن تشكّل موضعاً كهذا.

¹ يُنظر: جوبرين، نوريت. 1998. كتيبت הארץ: ארצות וערים על מפת הספרות העברית. ירושלים: כרמל, עמ' 64-42.

بحث المؤرخ الفرنسي بيير نورا (P. Nora) في دراسته الضخمة "مواضع الذاكرة" (*Les lieux de mémoire*) السيرورات المُنتجة للذاكرة الجمعية والصائنة لها، المنتقاة لأحداث التاريخ التي يتعين تذكّرها وبأي شكل، وهوية الأحداث التي يتعين نسيانها.² ووفق نورا، فإنّ مواضع الذاكرة هي المُنتجة لتماهي الفرد والجماعة مع الشعب على نحو تلقيني من طرف المستويات العليا للمؤسسة. يمكن للأدب، أسوة بإبداعات ثقافية أخرى، أن يعتبر موضعاً للذاكرة (من الصنف الرمزي)، إذ تتضمّن الكتب كذلك روايات حول الماضي بين دفتيها، تُدع حضوراً لهذه الروايات في قلب الثقافة المعاصرة وتقوم بالتالي بتخليدها.

يسهل علينا في الواقع الإسرائيلي استحضار نماذج للأشكال التي تقوم وفقها مواضع الذاكرة بالتعبير عن الرواية المهيمنة، وتسعى إلى استحداث تماهي الفرد والمجتمع مع الشعب وحراستها، مثل النصوص الرسمية، والنُصب التذكارية المزروعة في الأحيزة العامة، والرموز والشعارات الوطنية المختلفة، وحتى الكتب المدرسية المعتمدة في المدارس. إلا أنّ نورا تجاهل وجود روايات هامشية ومختلفة حول الذاكرة في الثقافة، تلك الروايات التي تتفاوض بحزم مع الرواية المهيمنة لا بل وتسعى إلى تقويضها كذلك.

تعامل الفيلسوف ميشيل فوكو (M. Foucault) مع ذاكرات من هذا النوع تحديداً واصطلاح عليها تعبير "ذاكرات مضادة" (*contre-mémoire*).³ قام فوكو بتعريف الروايات الهامشية، تلك التي تروي رواية مغايرة عن تلك الرواية التي تسعى السيادة إلى نشرها، بوصفها روايات الذاكرة المضادة. يعود موطن هذه الذاكرات والروايات إلى تلك الفئة غير المنتمية إلى النخبة الحاكمة المسيطرة وإنما إلى مجموعات هامشية إثنياً أو طبقياً أو جندياً أو أيديولوجياً وغيرها. تتجج هذه الذاكرات المضادة، أو روايات الذاكرة المضادة، في البقاء على قيد الحياة ضمن الثقافة بوصفها روايات هامشية، وتقوم بتحدّي الرواية المهيمنة وذاكرتها المفروضتان من جهة المؤسسة، وهما اللتان يشير بيير نورا إلى ضرورة حراستها الثقافية عبر مواضع الذاكرة.

انطلاقاً من دراسات نورا وفوكو، اقترح الجغرافي ستيفين ليغ (S. Legg) تعبير "مواضع الذاكرة المضادة" (*sites of counter-memory*) - ويعني بذلك تلك المواضع الثقافية التي فيها يتم تحدي السيرورات المهيمنة لتنظيم واستحداث الذاكرة، وهي المواضع التي يتم التعبير عنها في روايات الذاكرة المضادة.⁴ يمكن أن تكون هذه على شكل روايات تفرض حضور أحداث ووجهات نظر تسعى المؤسسة إلى فرض نسيانها، أو روايات تقترح تأويلات بديلة لأحداث مخلّدة في الذاكرة الجمعية المهيمنة. وعليه، أطرّح هنا ادعاءً مفاده أنّ أنماط التمثيل الأدبي لحيفا الانتدابية تُشكّل هذه المدينة بوصفها موضعاً للذاكرة المضادة من الصنف الرمزي.

بغية تعزيز هذا الادعاء، يتعين علينا بداية فحص سمات رواية الذاكرة المهيمنة في دولة إسرائيل حول فترة الانتداب. تسعى هذه الرواية، كما يخبرنا بيير نورا، إلى استحداث تماهي مع الشعب - ألا وهو الشعب اليهودي الإسرائيلي في حالتنا. تتجلى هذه الرواية في حالتنا، على سبيل المثال، في كتب التاريخ المدرسية المخصّصة للمدارس الحكومية، وفيما

² يُنظر: Pierre Nora, *Les lieux de mémoire*, Paris: Gallimard, 1984-1994; Pierre Nora, **Realms of Memory**: Rethinking the French Past, New York: Cambridge University Press, 1996-1998

³ يُنظر: Michel Foucault, **Language, Counter-Memory, Practice: Selected Essays and Interviews by Michel Foucault**, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1977.

⁴ يُنظر: Stephen Legg, "Sites of Counter-Memory: The Refusal to Forget and the Nationalist Struggle in Colonial Delhi", **Historical Geography** 33 (2005), 180-201

يلي ما يرد فيها: تعتبر حقبة الانتداب عصر فرضت فيه سلطة أجنبية على أرض إسرائيل. ظهرت في هذه الحقبة محاولة للشعب اليهودي، وهو لا يزال في طور تنظيم نفسه في وطنه التاريخي، التصادم على جبهتين على تراب أرضه: ضد الاحتلال الانتدابي من جهة، وضد العدو العربي، ذلك العدو الذي يُشكّل منافساً على الأرض القومية، من جهة أخرى.⁵

إلا أنه وبالرغم من ذلك، فقد نجحت روايات بديلة أخرى بالبقاء على قيد الحياة على أطراف الرواية السائدة. كما أوضحت في أطروحة الدكتوراه، فقد مال الأدب الحيفاوي، على مدار السنين، إلى عرض روايات مضادة للرواية المهيمنة وتحدّائها وتسعى إلى تقويضها. إنَّ التمثيلات الأدبية للمدينة تقوم على حراسة وفرض الحضور الثقافي لروايات ووجهات نظر مختلفة، بعضها لم تكن مقبولة في حين ظهرت هذه التمثيلات.⁶ هذا هو الوضع كذلك في حالة التمثيلات الأدبية لحيفا الانتدابية التي أسعى إلى الكشف عنها بوصفها موضعاً لذاكرة مضادة. لفعل ذلك سأحاول في معرض ذلك التركيز على عمليين أدبيين، الأول عمل أدبي صدر باللغة العبرية والآخر باللغة العربية، انبثق هذان العملان من باطن المنظومة الثقافية لدولة إسرائيل، أعني في مقابل رواية الذاكرة المهيمنة، وكلاهما يشكّلان، بنظرة رجعية وانطلاقاً من منظور الحنين، ذاكرة حيفا الانتدابية بصورة مناقضة لهذه الرواية المهيمنة.

"سكّة حديد دمشق" - الحنين إلى حيفا الكوزموبوليتية

صدر النص المسرحي "سكّة حديد دمشق"، للأديب المسرحي هيلل ميتلبونكت (H. Mittelpunkt)، وعُرض على خشبة المسرح في سنة 2010، إلا أنّ أحداثه تجري في حيفا في سنة 1942.⁷ ينطلق هذا العمل المسرحي من منظور الحنين لوصف حيفا الانتدابية، ويبنى لصالح جمهوره رواية تاريخية مغايرة تماماً عن الرواية الإسرائيلية المهيمنة. تُعرض حيفا الانتدابية بوصفها حيّاً كوزموبوليتياً، حيث يعيش اليهود والعرب والبريطانيون سوية تربطهم علاقات صداقة واحترام متبادل. وتُعرض القوميتان اليهودية والفلسطينية بوصفهما عنصرًا أفضى إلى تقويض الإمكانية الكوزموبوليتية هذه في حيفا الانتدابية.

يعرض هذا العمل المسرحي شخصيات يهودية وعربية وبريطانية، وبالرغم من أنّ لغته الأساسية هي العبرية (إذ إنها تتوجّه إلى جمهور ينطق بالعبرية)، إلا أنّ الحوارات بين الشخصيات تدور عملياً بأربع اللغات: العبرية والعربية والإنجليزية

⁵ لتجسيد ذلك، يُنظر الفصول المخصّصة لفترة الانتداب البريطاني المتوفرة في كتاب التدريس لصفوف الحادي عشر التالي والتي تحمل العنوان "تشيد البيت القومي"، و"الصراع لنيل الاستقلال" (يُنظر: كزايعة ابيال-تبيبا، **مسעות בזמן: بונים מדינה במזרח התיכון**، ירושלים: הוצאת מט"ח، 2009، עמ' 8-111).

⁶ وفي هذا السياق، يُنظر كذلك: Chen Bar-Itzhak, "The Dissolution of Utopia: Literary Representations of Haifa, from *Altneuland* to Later Israeli Works", **Partial Answers: Journal of Literature and the History of Ideas** 14, 2 (2016), 323-342.

⁷ تناول هيلل ميتلبونكت (من مواليد سنة 1949)، على مدار أربعة عقود من الإنتاج المسرحي، بصورة مكثّفة قضايا اجتماعية، ومن بينها وضع الناجين من المحرقة النازية في المجتمع الإسرائيلي (القضية التي أشغلته بوصفه ابناً لوالدين نجو من المحرقة)، وتجاهل بلدات الأطراف، والحالة الاجتماعية للنساء، وفساد البرجوازية الإسرائيلية. يميّز العمل المسرحي الحالي بأنه خلافاً لقبية أعماله المسرحية الأخرى، فإنه لا يتناول واقعاً حاضراً بصورة نقدية، وإنما يتناول ماضياً معروض من منظور الحنين، ويبرز النقد على الواقع القائم من قلب هذا المنظور. لمزيد من النقاش والدراسة حول أعماله المسرحية، الصادرة بين السنتين 1970-2000، يُنظر: نوريت نتنאל، **מראות נשברות: ייצוג הישראליות ועיצובה במחזותיהם של יהושע סובול והלל מיטלפונקט**، תל-אביב: הקיבוץ המאוחד، 2012، עמ' 161-270.

والروسية. بطلة المسرحية هي سارة، امرأة يهودية مثقفة ومستقلة تحمل أيديولوجية كوزمبوليتية، تسعى إلى نشر أيديولوجيتها بين صفوف سكان المدينة. وكذلك، مديرها في العمل وصديقها القريب فتحي، محام عربي محترم ومتقّف مثلها، يحمل الأيديولوجية نفسها. كان فتحي ووالد سارة أعضاء في الحزب الشيوعي في حيفا، وكلاهما استقالا منه على أثر اختيار الحزب الشيوعي طريق القومية العربية. يفرض العمل المسرحي تعارضاً بين سارة وفتحي من جهة، وبين شخصيات يهودية وعربية تحمل أيديولوجيات قومية وقومية متطرّفة من جهة أخرى.

تدور أحداث المشهد الأول للحبكة المسرحية في صالون سارة، حيث تستضيف أشخاصاً من اليهود والعرب والبريطانيين الذين يتبادلون أطراف الحديث، ويعزفون على البيانو، ويغنون سوية. يدور الحوار فيما بينهم بثلاث لغات مختلفة - العبرية والعربية والإنجليزية، وهو ذلك الحوار الذي يجسّد العلاقات الوطيدة بين الشخصيات اليهودية والعربية.⁸ وعلى هذا النحو، يُعرض صالون سارة، على الثقافات واللغات المختلفة الحاضرة فيه، بوصفه حيّزاً من شأنه أن يحتوي جميع الأنفس الحاضرة فيه، لا بصفتهم ينتمون إلى فئة قومية أو إثنية أو أيديولوجية معينة، وإنما على أساس العلاقات الشخصية الإنسانية التي تربطهم. ينتج من هنا أنّ صالون سارة يشكّل كناية عن مدينة حيفا الانتدابية، ذلك الحيّز متعدّد اللغات والثقافات الذي يتمتّع بعلاقات بين أشخاص ينتمون إلى فئات إثنية مختلفة. نستنتج من هنا أنّ هذا المشهد يقوم بتشكيل ذاكرة حيفا الانتدابية بصورة مناقضة تماماً للرواية الصهيونية المهيمنة بشأن فترة الانتداب، وهي تلك الذاكرة التي تحتضن حيّزاً كوزمبوليتياً متعدّد الثقافات واللغات وروابط وطيدة تتحكّم بالعلاقات بين فئاته الإثنية المختلفة. وعليه، فإنّ منظور الحنين نحو حيفا الانتدابية يقوم بتشكيل المدينة، في سياقنا الحالي، بوصفها موضعاً للذاكرة المضادة.

يوضح لنا عالم الاجتماع فريد ديفيس (F. Davis)، في معرض دراسته الهامة حول الحنين بوصفه ظاهرة اجتماعية، أنّ منظور الحنين يكشف لنا عن ما نفتقده في حاضرنا أكثر من كشفه لنا ماذا جرى حقيقة في الماضي.⁹ وإذا انطلقنا من هذا الادعاء، ينتج أنّ محرّك الرواية القائمة على منظور الحنين، المتشكّل في هذا العمل المسرحي، يتمثّل في لمس صعوبة بالغة في الواقع الحاضر، تلك الصعوبة التي تقوم على الإحساس بغياب المشاركة والمساواة بين الفئات المختلفة في المجتمع، وبأنّ القومية بصورة عامة، والصهيونية بصورة خاصة، هي العامل المركزي الذي يفضي إلى غياب المساواة في المجتمع في واقعنا الحاضر. انطلاقاً من منظور الحنين، يتوجّه ميتلبونكت، الذي يكتب في واقع ينطوي على حقيقة أنّ القومية قد هزمت الكوزمبوليتية، نحو حيفا الانتدابية، ويقوم بتشكيلها من جديد، كما لو أنها تمثّل رداً على وضع الصراع القائم في حاضرنا.

تشغل "سكّة حديد دمشق" (المقصود هو بالطبع سكّة حديد الحجاز)، ضمن هذا العمل المسرحي، دور الرمز الأساس - رمزاً لعلاقة حيفا مع المحيط الشرق أوسطي؛ وكذلك تشكّل كناية للعلاقة الممكنة التي تربط اليهود مع العالم العربي المحيط بهم. نكتشف لاحقاً في العمل المسرحي أنّ الحبكة تجري خلال ما بات يطلق عليه "أيام الرعب المائتين" - هي أيام تقدّم قوات الجيش النازي بقيادة اللواء روميل باتجاه المنطقة، ولم يكن واضحاً في حينه ما إذا كان الجيش البريطاني قادراً على وقف هذا التقدّم. إنّ سكّة حديد دمشق هي المنصّة التي يحاول فتحي العربي من خلالها إنقاذ رفيقته اليهودية سارة من براثن النازيين، وذلك من خلال إرسالها إلى ابن عمّه المقيم في دمشق. وعلى هذا النحو، يبدو أنّ العلاقة، المتجسّدة رمزياً في سكّة الحديد، التي تربط حيفا بالشرق الأوسط، وبعبارات المجاز المرسل، بين اليهود والمحيط العربي،

⁸ يُنظر، على سبيل المثال، الحوار الجاري بين سارة وفتحي وبنيني وجمال وجون (הלّل מיטלפונקט. 2010. **مسيلا لدمشق**. تل-أביב: גוונים، ل'מ' 12).

⁹ يُنظر، Fred Davis, **Yearning for Yesterday: A Sociology of Nostalgia**, New York: Free Press, 1979.

تتشكل في العمل المسرحي بوصفها علاقة تتضمن قدرة لخالص اليهود. إنَّ هذه العلاقة غير قائمة في حاضر الجمهور، ولا يمكن لها أن تكون قائمة، حتى ولو على الصعيد الرمزي فقط، لأنَّ سكة الحديد الواصلة بين حيفا ودمشق قد اندثرت، كما هو معروف للجميع، مع إنشاء الدولة القومية، وأنَّ الخطوط التي خرجت من حيفا باتجاه بقية مدن الشرق الأوسط قد توقفت عن العمل. وفعلاً، نكتشف لاحقاً في العمل المسرحي، أنَّ شخصيات قومية وتلك المغالية في نزعاتها القومية قد أدت إلى وقوع أحداث مأساوية وعملية قتل على سكة الحديد، ذلك القتل الذي يرمز إلى اندثار الإمكانية الكوزمبوليتية.

على هذا النحو، فإنَّ منظور الحنين إلى حيفا الانتدابية - وتشكيلها في إطار رواية الذاكرة المضادة، المغايرة عن رواية ذاكرة الجماعة المتسلطة حول فترة الانتداب - يتيح للكاتب المسرحي لمس إمكانية واقع بديل، ليس قومياً وإنما كوزمبوليتياً، ذلك الواقع الذي يشار إليه بأنه ربما كان من الأفضل لو أنه هُزم إمكانية الوجود القومي.

"إخطية" - حنين لحيفا العربية

تتميز رواية إميل حبيبي "إخطية"، الصادرة في سنة 1985، كذلك بمنظور الحنين، وتقوم بتشكيل حيفا الانتدابية بوصفها موضعاً للذاكرة المضادة - ولكن من صنف مغاير تماماً. تتقدّم الرواية زمانياً بدءاً من الواقع الحالي المعاش في حيفا وصولاً إلى أيام صبا الراوي في حيفا الانتدابية. أسوة بعمل مينتلونكت المسرحي، نشهد في رواية حبيبي كذلك محاولة لتشكيل متجدد لذاكرة الماضي، وتشهد رواية الحنين على ما يُفقد له في الحاضر. إنَّ البريطانيين كقوة سلطوية في حيفا الانتدابية من منظور حبيبي غير حاضرين تقريباً، بل إنَّ المدينة تتشكل في الرواية بوصفها حيفا العربية. وعلى هذا النحو، نشهد أنَّ الكاتب يطلق على فترة الانتداب تعبير "أيام العرب" لا "أيام الانتداب البريطاني". هذه هي الذاكرة المضادة لحيفا الانتدابية التي تسعى الرواية إلى تشكيلها. إلا أنها مدينة أيام الصبا كذلك، وبوصفها كذلك، فإنَّ توصيفها يحمل طابعاً الحنين الصريح ترافقه مشاعر من فقدان الشدائد تتراوح بين الذاتي والجماعي - فقدان تلك الأيام، وفقدان إمكانية تحقيق الكيان الجمعي الكامنة فيها كذلك.

تستهل الرواية بمشهد ازدهام مروري شديد، يبدأ من شارع هالوتس ويزحف رويداً رويداً حتى يشلُّ حركة مدينة حيفا بكاملها. يحمل هذا الازدهام المروري، الناجم عن ظهور مخلوق فضائي، دلالات رمزية في الرواية ويدبُّ الحياة في الحبكة: بدايةً، تظهر أمور مفاجئة، مثل ظهور إخطية، وثانياً، يمنح هذا الازدهام بتزاحم ذكريات حيفا الانتدابية في وعي الراوي، الجالس أمام مقود مركبته يتفكّر بحيز المدينة المحيط به من كل ناحية.

يطلُّ علينا في مستهل الرواية مشهد حيز المدينة في الوقت الحاضر: شارع هالوتس بأكشاكه وتجاره والمركبات العالقة في اختناقه المروري. ولكن شيئاً فشيئاً ينبج من بطن هذا الاختناق حيز مدينة حيفا الانتدابية. يصف لنا الراوي المشاهد المحيطة به، وبالرغم من أنه يستخدم الأسماء الحالية للإشارة إلى معالم المدينة، إلا أنه يذكر الأسماء السابقة كذلك، تلك الأسماء المعتمدة في "أيام العرب". وعلى هذا النحو، يتحوّل "جسر باز" إلى "جسر شل"، وشارع بن يهودا إلى شارع الناصرة، وشارع خطيبات جولاني إلى ميدان الملك فيصل، وجادة هتسيونوت إلى شارع الجبل (بجميع الدلالات الرمزية التي تحملها هذه الأسماء) وغيره كثير (ص 23-28).

تهدف عملية تغيير المؤسسة الإسرائيلية لأسماء الطرقات إلى تغييب الحياة التي كانت تدبُّ سابقاً في هذا الحيّز، وفي أعقاب ذلك تغييبها من الذاكرة الجمعية الإسرائيلية (وأستذكر هنا كلام بيير نورا حول العلاقة بين المواضيع والذاكرة والشعب).¹⁰ إنَّ استحضار الأسماء الأصلية للشوارع والطرقات في الرواية الحالية وتغلغلها في وعي الراوي، ومجرد حضورها في السردية الروائية، تفرض حضور حيّز المدينة السابق من جديد، وتبعث الحياة للشوارع والطرقات القديمة وتندب الحياة بالنشاط الذي كان يجري فيها، وعلى هذا النحو يستحدث الكاتب موضعاً رمزياً للذاكرة المضادة.

إلى جانب استحضار ماضي حيفا الانتدابي وتغلغله في حاضر المدينة، يتعامل الراوي كذلك مع مسائل الذاكرة والنسيان، الذاتية والجماعية على حدّ سواء. يصف لنا الراوي الوضع في أعقاب صدمة النكبة، ويطلعنا كذلك على حاله في مستهل الحبكة، بوصفه حالة من النسيان الجماعي (ص 12)، ويضيف: "... هذا القدر، أكبر من أن تحتلها نفوسنا الغضة. فأحطنا الذاكرة بأكياس ملأناها بالنسيان استحكمتنا وراءها نصدّ غارات اليأس حتى لم يبق في الذاكرة سوى هذا السياج" (ص 86). تظهر في الرواية قضايا متعلّقة بالذاكرة والنسيان بصورة متكرّرة مرة تلو الأخرى: من جهة واحدة، الصعوبة العاطفية للتذكّر، والمحاولة للنسيان بغية الاستمرار بالحياة؛ ومن جهة أخرى، الإحساس بالالتزام الأخلاقي لتذكّر الماضي. حين يبدأ الراوي بالتذكّر التدريجي لحيفا "أيام العرب" يدرك أهمية الذاكرة ويؤكد عليها. إذ إنَّ عبر استحضار الذاكرة المضادة فقط، وهي الذاكرة التي تسعى السلطة المهيمنة على طمسها وتغييبها، تتاح الفرصة أمام تشكيل الهوية - وفي حالتنا، الهوية الوطنية الفلسطينية.

تحتل حيفا الانتدابية، حيفا "أيام العرب"، في نهاية عملية التذكّر المركّبة، صدر خشبة المسرح. تتغيّر نبرة الراوي تماماً في هذا الجزء من الرواية: تتسحب النبرة التهكمية التي يميّز بها حبيبي لتفسح المجال أمام نبرة الحنين البريئة تماماً من أي تهكّم. يصف لنا الراوي حي عباس، ببيوته الأولى، وهو لا يزال في أطواره الأولى، حيث الطبيعة لا تزال العنصر السائد فيه: أحراش الكرم الطبيعية والجبال والبحر والأودية وبنات آوى والعصافير - تحتل جميعها المشهد في وصف حيفا "أيام العرب". يتمشّى عباس أفندي في الحارة وبيعت فيها سحره، ويلهو الأولاد في البساتين. إنه توصيف مشبّع بالرومانسية، يعبر عن الحنين إلى أيام الصبا ومراتع الطفولة والأماكن المفتوحة التي نمت فيها: "وما أوسع الدنيا في ذلك الزمن. الكرم كلّه لنا والبحر ... دنيانا كلّها كانت حلالاً علينا: السهل والجبل ... كانت الدنيا حلالاً، وكان العيش فيها حلالاً" (ص 70). تتطّبع حيفا الانتدابية هنا، الموصوفة بعبارات مغايرة تماماً عن تلك المعتمدة في رواية المؤسسة الإسرائيلية المهيمنة، بألوان الصبا. كما أسلفنا، فإنّ الحنين إلى الماضي يكشف عن ما نفتقده في وقتنا الحاضر، وعلى هذا النحو، فإنّ مشاعر الحرية الموصوفة في حيفا الانتدابية مرتع الطفولة تتشكّل تعارضاً لغياب مشاعر الحرية في حاضر الراوي.

يجدر التنويه إلى أنّ تذكّر الماضي، أيام العرب، يظهر دوماً بصيغة ضمير المتكلمين (نحن). لا تستخدم الرواية ذكريات طفولة ذاتية تقريباً ولا تستخدم ضمير المتكلم (أنا).¹¹ إذ توصف حيفا الانتدابية، فعلاً، من خلال ذاكرة جمعية فحسب. وهذا بالطبع استخدام مقصود من طرف الكاتب: تشكيل حيفا الانتدابية بوصفها موضعاً للذاكرة المضادة تتوجّه إلى جماعة بعينها وإنتاج ذاكرتها المفقودة من جديد، وهي تلك الذاكرة تحديداً التي تسعى الرواية المهيمنة إلى طمسها وتغييبها. تتحوّل

¹⁰ ويُنظر في هذا السياق كذلك: Uri Ram, "Ways of Forgetting: Israel and the Obliterated Memory of the Palestinian Nakba", *Journal of Historical Sociology*, 22, 3 (2009), pp. 366-395.

¹¹ يُنظر على هذا الصعيد مقالة سراج عاصي الذي يرى بكتابة إميل حبيبي سيرة ذاتية جماعية: Seraje Assi, "Memory, Myth and the Military Government: Emile Habibi's Collective Autobiography", *Jerusalem Quarterly*, 52 (2013), pp. 87-97.

حيفا الانتدابية في رواية "إخطية"، على هذا النحو، إلى موضع للذاكرة متماهي مع الشعب، كما يطعننا ببيير نورا، ولكن مع شعب آخر مغاير عن ذلك الذي تنطوي عليه ذاكرة الرواية المهيمنة، وإنما مع الشعب الفلسطيني.

للخلاصة، فإنَّ العملين الأدبيين، موضوع المقالة الحالية، يشكّلان انطلاقاً من منظور الحنين مدينة حيفا الانتدابية بوصفها موضعاً للذاكرة المضادة، موضعاً رمزياً يتحدّى رواية الذاكرة الصهيونية المهيمنة. يعرض منظور الحنين في كليهما حيفا الانتدابية وكأنها "جنة عدن المفقودة"، اختفت في أعقاب إنشاء الدولة القومية اليهودية. إلا أنَّ ميزات جنة عدن هذه، وكذلك الاستخدام الأيديولوجي والأدبي لها، مختلفة تماماً في كل واحد من هذين العملين: يعرض النص المسرحي "سكّة حديد دمشق" حيفا الانتدابية بوصفها مدينة كوزمبوليتية، ويسعى أبطاله من اليهود والعرب بصورة فاعلة إلى تعزيز الأيديولوجية الكوزمبوليتية على حساب القومية (اليهودية والفلسطينية). نكتشف في العمل المسرحي شوقاً يهودياً للعودة إلى حالة تسودها المساواة بين اليهود والعرب، وغياب حالة التحكم بالآخر، وقد وقع الاختيار على حيفا الانتدابية كموضع يتضمّن إمكانية تحقيق هذه الحالة التي نفتقدها في حاضرنا. أما رواية "إخطية"، فتصف حيفا الانتدابية عبر منظور الحنين كـ"أيام العرب"، لا كأيام الانتداب البريطاني، ومن هنا فإنها تتشكّل بوصفها تمثّل تعارضاً مع السلطة اليهودية في الوقت الحاضر، تصف اختفاءها كونه فقداناً في سياق الوطنية الفلسطينية. يميل التوجّه السائد في الأبحاث الأكاديمية إلى اعتبار الحنين أساساً محافظاً ورجعياً، يشجّع على الجمود وإدامة المفاهيم السائدة، ويعترض على التغيير والتقدّم. إلا أنَّ هذين العملين يوضحان كيف يمكن للحنين أن يؤدي دوراً مناقضاً لذلك، دوراً مضاداً للمهيمنة، وذلك حين يتشكّل هذا الحنين اجتماعياً كموضع للذاكرة المضادة، ويقوم هو نفسه بتشكيل ذلك الموضوع من جديد. في مثل هذه الحالات، لا يُستخدم الحنين لحراسة الرواية المهيمنة، بل على العكس من ذلك، فهو عنصر تأمري يقترح فرصاً أخرى جديدة - ليس مجرد ذاكرة تستحضر الماضي لتستبطنه في رواية مغايرة فحسب، وإنما تستحضره لفهم الحاضر أيضاً وفهم رموز مستقبل محتمل.

ثبت المصادر:

- حبيبي، إميل. 1985. *إخطية*. نيقوسيا: منشورات مؤسّسة "بيسان برس" للصحافة والنشر والتوزيع.
- أبيال-توبيان، كزيم. 2009. *مسעות בזمن: بונים مדינה במזרח התיכון*. رמת-أبيب: הוצאת מט"ח.
- غوبرين، نوريت. 1998. *כתיבת הארץ: ארצות וערים על מפת הספרות העברית*. ירושלים: כרמל.
- ميستلفونكس، הל. 2010. *مسילה لدمشق*. تل-أبيب: גוונים.
- נתנאל, נורית. 2012. *מראות נשברות: ייצוג הישראליות ועיצובה במחזותיהם של יהושע סובול והלל מיטלפונקס*. تل-أبيب: הקיבוץ המאוחד.

Assi, Seraje. 2013. "Memory, Myth and the Military Government: Emile Habibi's Collective Autobiography," *Jerusalem Quarterly* 52, 87-97.

Bar-Itzhak, Chen. 2016. "The Dissolution of Utopia: Literary Representations of the City of Haifa, between Herzl's 'Altneuland' and Later Israeli Works," *Partial Answers: Journal of Literature and the History of Ideas* 14(2), 323-342.

Davis, Fred. 1979. **Yearning for Yesterday: A Sociology of Nostalgia**. New York: Free Press.

Foucault, Michel and Donald Bouchard (eds.). 1977. **Language, Counter-Memory, Practice: Selected Essays and Interviews by Michel Foucault**, Ithaca, NY: Cornell University Press.

Legg, Stephen. 2005. "Sites of Counter-Memory: The Refusal to Forget and the Nationalist Struggle in Colonial Delhi," **Historical Geography** 33, 180-201.

Nora, Pierre. 1996-1998. **Realms of Memory: Rethinking the French Past**. New York: Columbia University Press.

Ram, Uri. 2009. "Ways of Forgetting: Israel and the Obliterated Memory of the Palestinian Nakba," **Journal of Historical Sociology** 22(3), 366-395.